المقتطف

الجزء الثاني عشر من السنة السابعة عشرة

١ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٩٣ الموافق ٢٠ صفر سنة ١٣١١

لغات البهائم

سبق لنا ذكر غارنر الانكليزي الذي انقطع لدرس لغة القرود بمحاكاة اصواتها بالفونغراف وحفظ تلك الاصوات او الالفاظ ومخاطبة القردة بها للوصول الى فهم معانيها وقد قصد غارنر المذكور حرجات افريقية لدرس لغات القرود في اوطانها . ويؤمل كثيرون انهُ يعود منها بحل سرّ من الاسرار الطبيعيَّة التي حار فيها المتقدمون والمتأخرون ويزيل الحد الفارق بين الحيوان الابجم والحيوان الناطق. وقد احيا ذكرهُ ذكر الذين بحثوا في لغات العجماوات اذا صحَّ وصفها بالعجماوات بعد الآن

ومن هؤلاء الباحثين كطفريد فنزل النمسوي . الَّف كتاباً في فينا سنة ١٨٠٨ في ما حلهُ من لغات البهائم وذهب الى ان البهائم تعبّر عن افكارها وعواطفها بالفاظ يفهمها افراد النوع الواحد منها وان فهمها مقدور للانسان ايضاً وانهُ يمكن ان تكتب بحروف هجائيَّة مثل الالفاظ البشرية. ووضع قائمة في اصوات ثلثين نوعاً من الطير وذوات الاربع والَّف قاموساً يحتوي اكثر من عشرين صفحة في مفردات لغات البهائم واضاف اليها ترجمات من لغة الكلاب ولغة القطاط وغيرها من السباع الى لغة الانسان وقد توسع في التفسير والتأويل حتى يخيل لمن يقرأ اقوالهُ انهُ يقرأ حكايةً من حكايات لقمان او خرافة من خرافات ايسوب عند الرومان

من ذلك ما يحكى عنهُ وهو انهُ ذهب يوماً لزيارة صديق لهُ من الصيادين المشهورين فقيل لهُ انهُ خرج يصطاد فاخذ كتاباً وجلس يقرأ تحت شجرة قريبة من وجر حبس الصياد فيهِ بعض الثعالب فجلس طويلاً حتى سمعها تصوت اصواتاً تدل على الدهشة

والسرور فاصغى الى ما تقول ففهم انها وجدت باباً للفرار من سجنها وانها مسرورة جذلة بقرب خلاصها من اسرها . فلما عاد الصياد قال لهُ اني سمعت الثعالب تقول كذا وكذا فاحذر لئلاَّ تفلت منك فضحك الصياد منهُ وقال لهُ دع عنك هذا الغرور ولا تخف على الثعالب نوجرها حريز لا منفذ لها منهُ ثم ذهبا الى البيت وجلسا يتعاطيان المرطبات ويتحدثان بامور أُخرى وبينما هما كذلك دخل الخادم عليهما بغتة واخبرهما ان الثعالب قد فرّت من وجرها

ويقول فنزل هذا ان لغات البهائم على غاية من البساطة وقلة الالفاظ وان اللفظ الواحد يدل على معانٍ متعددة بتفاوت اصواتهِ في الضعف والقوة واقترانهِ بالحركات والاشارات التي تدل على المعنى المقصود فتمنع الالتباس بدلالتها الطبيعيَّة . وقد افرد فصلاً طويلاً للبحث عن دلالة كل عضو من اعضاء الحيوان على المعاني من الاسنان الى الاذناب وقال ان الطير تعبّر بريشها عن اضطراب عواطفها وتزيد فصاحتها باجنحتها وان الكلاب والقطاط كثيرة العواطف قويتها وان كل نوع من انواع الحيوان يتكلم بلغة خاصة بهِ مشتقة من لغة فصيلتهِ الاصليَّة ولذلك كان بعض لغات البهائم متقارباً متشابهاً وبعضها لا يظهر فيهِ تشابه كما هي الحال في لغات البشر فالحمار مثلاً يفهم لغة حمار الوحش احسن مما يفهم لغة الفرس لان حمار الوحش اقرب اليهِ نسباً ولو كانت لغات الثلاثة مشتقة من لغة الفصيلة التي هي منها . والخنازير الداجنة يفهم بعضها لغات بعض احسن مما تفهم لغات الخنازير البريَّة لان الداجنة اقرب نسباً ولو كانت كلها من فصيلة واحدة ولغاتها متفرعة على اصل واحد هو لغة الفصيلة الاصليَّة

هذا من قبيل فهم الانسان لكلام البهائم وفهم البهائم كلام بعضها البعض واما فهم البهائم كلام الانسان فقد اورد عليهِ فنزل شواهد عديدة . قال ان قيساً علم كلبهُ " فيدو " ان يأتيهُ بالكتب من مكتبة ملاصقة لغرفتهِ فكان يقول لهُ اذهب يا فيدو الى المكتبة فتجد على الكرسي قرب النافذة ثلثة كتب كتاباً كبيرًا وكتاباً متوسطاً وكتاباً صغيرًا فأتني بالكبير مثلاً فيأتيهِ فيدو بالكتاب المطلوب ولا يخطئ . وقد علمهُ ذلك بوضعهِ ثلاثة كتب مختلفة القطع على الكرسي وقولهِ كبير ووسط وصغير فهات الكبير وهكذا . وعلمهُ ايضاً ان يأتي باشياء اخرى عديدة يسميها لهُ باسمائها فلا يخطئها الاَّ نادرًا وعلمهُ ان يبلغ كلامهُ الى معارفهِ فيقول لهُ مثلاً اذهب يا فيدو الى فلان وقل لهُ اني ازورهُ اليوم فيذهب الكلب الى الرجل المعين وينبح امامهُ ثلاث نبحات قصيرات متتابعة

عن الباب المعتاد فيفهم الرجل المقصود . وكان اذا زار القسيس زائرٌ وهو غائب ينبح فيدو نبحة واحدة ليفهم الزائر ان صاحبهُ غائب واذا لم يغب صاحبهُ بل اراد الانفراد وابى مقابلة الزوار قال لهُ اخبر من يأتي لزيارتي اني غائب فينبح الكلب نبحةً واحدةً ايضاً . ومتى جاء الزوار اسرع نيدو الى الباب يخشهُ باظافرهِ وينبح مرتين فيفهم صاحبهُ ان في الباب زائرًا

ويحكى انهُ كان عند عائلة في بلاد بفاريا كلب يستنكف ان يدخل البيت رجل ورأسهُ غير مكشوف ولكنهُ لا ينكر ذلك على المرأة . فسمع رجل اميركي بخبرهِ فجاء البيت يجربهُ ودخل وجلس ولم يكشف رأسهُ وذلك دليل قلة الاعتبار لاهل البيت عند الافرنج كما لا يخفى . فلما رأى الكلب قبعتهُ على رأسهِ وقف امامهُ وجعل ينبح وعيناهُ شاخصتان اليها فظل الرجل يتكلم كأنهُ غير منتبهٍ اليهِ ولم يكشف رأسهُ فما كان من الكلب الاَّ انهُ وثب عليهِ وعضَّ هدب قبعتهِ بنابيهِ ونزعها عن رأسهِ ووضعها على الكرسي بجانبهِ ثم ذهب يلوح بذنبهِ ظافرًا مسرورًا

وروى فنزل ايضاً ان رجلاً كان يرسل كلبهُ الى الجزار ليأتيهُ باللحم فيقف الكلب امام اللحم المطلوب من ضأن او عجل او ثور او غير ذلك وينبح مرة او مرتين او اكثر على قدر الارطال المطلوبة فيعطيهِ اللحام مطلوبهُ فيرجع الى بيت صاحبهِ كأنهُ خادم يفهم ما يعلم . وقد اطال فنزل في ذكر هذه الشواهد وكتب القوم تحتوي كثيرًا من نظائرها فلا نزيد من ذكرها

ومنهم رادو الفرنسوي الف كتابًا في الصوت والتسميات سنة ١٨٦٩ وذكر فيهِ لغة البهائم عرضاً وقال ان الانسان يستطيع تعلمها والتكلم بها وخالف مرسن الفرنسوي في مذهبهِ وهو ان الانسان ينطق بارادتهِ واختيارهِ ويعبر عن افكارهِ بالفاظ لا يقولها الاَّ اذا شاء قولها واما ما دونهُ من الحيوان فيصوت عن اضطرار لا اختيار وينفرد ويهرُّ ويعوي ويصهل مطاوعة لعوامل قسريَّة وقوًى طبيعيَّة لا يستطيع مخالفتها فالفرق بينهما حريَّة الارادة وكون الانسان حرًّا مختارًا وكون البهيم مضطرًّا غير مختار . فانكر رادو هذا الفرق بينهما وقال ان الثرثار الذي لا يستطيع ضبط لسانهِ بل يهذر طول نهارهِ عبد للعوامل مطواع للقوى الطبيعيَّة مثل سائر البهائم فان كانت هي تصوت عن اضطرار فهو لا يهذر عن اختيار ايضاً

وقد روى في سياق الحديث نادرةً عن جول ريشار اثباتًا لرأيهِ وهي ان جول

ريشار المذكور عاد مريضاً من اصدقائهِ في مستشفى من المستشفيات سنة ١٨٥٧ فتعرَّف هناك برجل من جنوبي فرنسا لهُ كلف بالبهائم ويدَّعي انهُ يفهم لغات الكلاب والسنانير ويكلم القرود كأنهُ واحد منها فلما سمعهُ ريشار يقول ذلك افترَّ غير مصدِّق قول الرجل. فاخذت الرجل الانفة وقال لهُ تعال معي غداً الى حديقة الحيوانات فتصدق كلامي. فذهبا في الغد ولما اتيا قفص القرود اتكأ الرجل على الدرابزون الخارجي وجعل يصوت اصواتاً تسمع ولا تكاد تكتب كقولهِ "كِرُّو. كُرُّكِيو. كوروكي. كركيو. ويرفع صوتهُ ويخفضهُ في لفظها. فلم يكن الاَّ القليل حتى دنت القرود كلها منهُ وجلست القرفصاء صفوفاً امامهُ وهي تفهقهُ وتجاوبهُ. فظل يخاطبها فتجاوبهُ ربع ساعة من الزمان وهي مسرورة بحديثهِ ثم همَّ بالرجوع فهاجت وماجت وصعدت الى أعلى الدرابزون وهي تولول وتنوح ولما اوشك ان يغيب عن ابصارها وقفت في أعلى قفصها وجعلت تتطال وتشرئب لرؤيتهِ. قال ريشار ورأيت منها حينئذ اشارات كمن يودع صديقاً ويقول لا تغب طويلاً

وقد استشهد جماعة من العلماء بالببغاء على فساد مذهب مرسن المذكور وقالوا ان الببغاء كالانسان في النطق بالاختيار. روى العلامة همبلت الشهير انهُ لما بادت قبيلة الاتوريين عن نهر اوريتوكو في اميركا الجنوبية لم يبقَ يتكلم بلسانها الاَّ ببغاء طاعنة في السن قضت بقيَّة عمرها في الوحدة بعدها فاذكرنا ذلك عجوزاً ماتت منذ اعوام في كورنول ببلاد الانكليز فماتت لغة كورنول بموتها ولم يبقَ من يتكلم بها بعدها. ومن الحوادث التاريخيَّة انهُ لما اراد لصوص من الاسبانيين اغتيال اهل قرية يورباكو سنة ١٥٠٩ رأتهم طيور الببغاء من اعالي الشجر فصاحت واخبرت اهل القرية بمجيئهم فنجوا من امامهم

وابلغ من ذلك ما يرويهِ الثقات عن ببغاء رباها قسيس كنيسة ملزبرج وعلمها من سنة ١٨٣٠ الى ١٨٤٠ كل يوم ساعتين ساعة في الصباح وساعة في المساء فاتسعت قواها العاقلة وارتقت مداركها بالتعليم ارتقاء لا يكاد يصدق. ثم توفي صاحبها سنة ١٨٤٠ فعاشت بعدهُ اربع عشرة سنة وماتت سنة ١٨٥٤ وقد راقبها كثيرون من الخبيرين ورووا عنها روايات يؤكدها المحققون على غرابتها. من ذلك انها رأت رجلاً ذات يوم داخلاً الى الغرفة التي هي فيها فصاحت بهِ قائلة من اين انت ثم التفتت اليهِ فوجدتهُ من رجال الكهنوت فقالت من نورها معتذرة اليهِ ارجو من قدسك العفو فاني حسبتك طائراً غريباً. وكانت كلما سمعت الناس يتحدثون في بيت صاحبها تشاركهم في الحديث كأنها واحد منهم وتكثر الكلام احياناً حتى يامرها صاحبها بالسكوت وكثيراً ما كانت تحدث

نفسها بامور يستغرب تصورها لها فتقول مثلاً " اضربني . اضربني ايها النذل . اضربني ولا عجب فهذا حال العالم " . وكانت تصفر الحاناً وتغني أخرى مما علمها اياهُ صاحبها

ويروي الكتاب الفرائب عن ببغاء لا تزال عائشة عند المسيو نيكاز من اعضاء الجمعيَّة الانثروبولوجيَّة في باريس يبلغ عمرها نحو خمسين سنة وادراكها عجيب وهي تعيد نداء الباعة والمنادين في شوارع باريس كأنها منهم . فلما حاصر الالمانيون باريس سنة ١٨٧٠ ارسلها صاحبها الى القرى حيث حفظت صوت الديك والبوم وتنفقة الدجاجة وصياح الديك واصوات كثير من ذوات الاربع الداجنة والطيور البريَّة فكانت تعيدها تسلية للسامعين . واتفق انهم ذبحوا خنزيرًا امامها منذ خمس وعشرين سنة فارتسمت صورة ذلك في ذهنها ولا تزال تعيد قباعهُ وكل صوت صاتهُ من اول ما امسك به الجزار وجرَّهُ الى المجزر حتى ذبحهُ وشخر شخرة الموت . وهي تعيد ذلك كما حدث تمامًا حتى يخيل للسامع انهُ يرى الخنزير بعينيهِ ويسمعهُ باذنيهِ فيجح سماعهُ ويسكت الببغاء امكانًا حتى لا يتذكر ما لا يروق للعين ولا يحلو للاذن . والعجب من ذلك ان هذه الببغاء تصغي الى حديث الناس وتفهم معانيهم وتتلفظ حينئذ بما يوافق المقام من كلام الاعجاب والاستغراب والدهشة وما شاكل كقولها . كذا . عجائب . آه ونحو ذلك من الكلام الذي تقولهُ في محلهِ . واذا سمعت رجلاً يقص قصةً او يقول نكتة مضحكة ورأت الناس يضحكون ضحكت معهم . وضحكها هذا مشاكلة لا عن فهم اذ يستبعد ان طائرًا كالببغاء يدرك ما في النكتة من معنى الهزل والمجون . واذا ارادت شيئًا نادت صاحبتها باسمها "ماري" فان لم تحضر حالاً نادتها مرَّة ثانية بصوت أعلى كمن نفد صبرهُ فانتهر المنادى . واتفق ذات مرَّة ان عودًا وقع من النار على ارض الغرفة وهو يتقد ويدخن فنادت الببغاء مولاتها يا ماري يا ماري كمن ذُعر شديدًا . وهي تغني الاغاني التي تعلمتها وترتجل اغاني لم تتعلمها وتصفرها صفيرًا تشبه صوت معزف من ذوات النفخ . وتوقع صفيرها توقيعًا يدل على انها تدرك الطنن في الانغام وتطرب لمحاسنهِ وهي تحفظ جانبًا من غدائها لتتعشاهُ في المساء فتهتم بامر نفسها في مستقبلها خلافًا لما زعم شكسبير من ان النظر في الماضي والاهتمام بالمستقبل خاص بالانسان

وقد قال الباحثون في طبائع الببغاء انها تدرك سن البلوغ في الثانية من عمرها بخلاف غيرها من الحيوانات الواسعة الادراك فان سن الصبوة طويل فيها . وتعمر الببغاء طويلاً والغالب انها تعيش اكثر من جميع افراد العائلة التي تربيها ولو كان بعضهم قد ولد

بعدها بزمان طويل. وقال المتقدمون في تعريف الانسان بالحيوان الناطق ان المراد بالناطق القوة الموجودة في جنان الانسان التي ينتقش فيها المعاني وهي لا توجد في البغاء لفقد انتقاش المعاني. على انهُ اذا صح ما يرويهِ المتأخرون عن طيور البغاء المذكورة آنفاً كان انتقاش المعاني موجوداً فيها غير مفقود بدليل انها تدرك مقام الكلام وتستخرج المعاني المطابقة لمقتضى الحال. على ان القطع في ذلك يحتاج الى استقراء اكثر وبحث طويل

هذا طرف مما اثبتهُ الباحثون في لغات البهائم الاَّ انهم لم يهتدوا الى طريقة دقيقة مثل طريقة غارنر ولذلك بقيت ابحاثهم ونتائجهم في معرض الريب. اما الآن وقد اصبح الاعتماد على الفونغراف في حفظ اصوات البهائم وتكريرها فقد انفتح لهذا البحث باب واسع لا يعلم ما وراءهُ الاَّ الله

ذوات الاذناب وتدقيق الفلكيين

العاملُ الذي يجني ثمرات العلم ويتمتع بقطوفها الدانيات لا يدري مقدار التعب والنصب اللذين يعانيهما العلماء لبلوغ تلك الثمرات والامثلة على ذلك كثيرة لا تحصى وليس على الطالب الاَّ ان يدخل داراً من دور المباحث العلمية فيرى باستور او غيرهُ من العلماء مشغولاً عن طعامهِ ببحث علمي لا يمكنهُ مفارقتهُ. ولعلَّ الفلكيين اكثر الناس اشتغالاً واشدهم تدقيقاً ولو لم يظهر لشغلهم فوائد عظيمة حتى الآن مثل الفوائد التي نتجت من اشغال الكيماويين والفسيولوجيين ومن امثلة ذلك بحثهم عن ذوات الاذناب وتتبع خطاها في دورانها حول الشمس كما ترى في النبذة التالية

في الرابعة عشرة من شهر يونيو (حزيران) سنة ١٧٧٠ رأى الفلكي مسيه الفرنسوي العظيم نجماً صغيراً من ذوات الاذناب وكان كنطخة صغيرة من الضباب في السماء ثم زاد جرماً وإشراقاً رويداً رويداً الى الثانية من شهر يوليو وحينئذٍ اقترب من الارض ولم يرَ الفلكيون نجماً آخر اقترب منها مثلهُ لا قبلهُ ولا بعدهُ وكان إشراقهُ حينئذٍ كاشراق نجم القطب وقطرهُ مضاعف قطر البدر ومن ثمَّ اخذ اشراقهُ يقلُّ رويداً رويداً ونُظر آخر مرة في الثانية من شهر اكتوبر ولم يُرَ بعدها

وقد اشتهر هذا النجم كثيراً لا لانهُ من ذوات الاذناب الكبيرة التي تمتدُّ اذنابها في عرض السماء فتدهش ابصار العامة والعلماء بل لما اعترض سيرهُ من العوارض ولما